2006 04 20 - 0001a - 2

السفير
2006/04/20
opinion

ثلاثون عاماً على انقلاب <الحرب القذرة>: الأرجنتين في أحشاء الوحش...

الأشقر بول

عزيزتي وداد، تلقيتُ الدعوة للمشاركة في إحياء ذكرى ١٣ نيسان. لم يتسنّ لي هذه السنة شرف المشاركة بسبب غيابي. ولكن هنا في القارة الأميركية الجنوبية لا تخلو المناسبات لتذكّرك وتذكّر بقضيتكم العادلة... ؟؟؟

الجمعة ٢٤ آذار من العام ٢٠٠٦ يا ليتك أرجنتينية يا وداد حلواني...

كان في استطاعتك بعد اليوم أن تستريحي... ولو قليلاً... وأن تريحي أيضاً... وأن تقولي <أخيراً حققنا> وصار يوم ٢٤ آذار يوم الذاكرة... وفي الأرجنتين يضيفون <والعدالة والحقيقة>. ليل أمس، أمضى عشرات آلاف من المواطنين ليلتهم في ساحة أيار. واليوم، ظهراً، تحدث الرئيس كيرشنير الذي كرم عسكريان واحد منهما استشهد لوقوفهما مع دولة القانون ضد الإنقلاب في السبعينات. وفي حفل رسمي في مقر أركان القوات المسلحة، ألقى خطاباً دعا فيه إلى التعمّق في الذاكرة حيث رأى <أن الدكتاتورية التي كانت القوات العسكرية ذراعها التنفيذية كانت لها جذور عميقة في المجتمع وفي الاقتصاد وفي الطبقة السياسية وفي الكنيسة...>.

كما ألقى على السلطة القضائية مسؤولية البتّ بمراسيم العفو التي كان أصدرها الرئيس السابق كارلوس منعم.

بعد ظهر اليوم ذاته، اجتمع عدد من المواطنين يتقدّمهم الرئيس ألفونسين، أول رئيس منتخب بعد انتهاء حقبة النظام العسكري، أمام مدرسة الميكانيك للقوات المسلحة وكانت أبشع رمز لمراكز التعذيب التي ستتحوّل إلى متحف... بدءاً من الخامسة مساء، اجتمع في ساحة أيار أكثر من مئة ألف مواطن كانوا خرجوا من منازلهم... وكان المشهد مؤثراً بعد كل هذه السنوات... بغضّ النظر عما حصل من بعد: بعد أن قرأت وثيقة سياسية مفصلة باسم التحرك، وقفت <أمهات المخطوفين> وهنّ أيضاً أكثر من تشكيل وتنظيم واعترضن عليها، لأنهن رأين فيها <استغلالاً لمأساتهن في مكان وزمان غير مناسبين>... لا، ليس كل شيء على ما يُرام حتى في دولة مثل الأرجنتين التي تعتبر طليعية وهي كذلك في هذا الموضوع على الأقل...

الشهرة العالمية لبيونشيه، ولكن الرقم القياسي للزمرة العسكرية التي حكمت الأرجنتين... من العام ١٩٧٦ إلى العام ١٩٨٣، كتبت أبشع الصفحات في كتاب الدكتاتورية في أميركا الجنوبية، إذا كان القياس منسوب العنف الذي تفجّر، بالنسب الرقمية، يمثل عدد المفقودين واحداً بالألف من سكان الأرجنتين وواحداً من أربعة آلاف من التشيليين، لماذا انفجر كل هذا العنف وبهذه الشدّة، ولماذا حصدت الدكتاتورية الأرجنتينية الميدالية الذهبية؟ (في أوج أيام الديكتاتورية، نظّم مونديال كرة القدم في الأرجنتين، وفاز البلد المضيف بلقبه الأول عام ١٩٧٨، وتمّ استغلال الحدث استغلالاً واسعاً...). لماذا الأرجنتين وليس غيرها من دول المحيط التي كانت

20060420-0001b-2

تعاني أيضاً من شرك الأنظمة العسكرية؟ في هذا التدقيق الخاص بالأرجنتين، أعترف برفض ضمني للتبسيط الشائع الذي يريد أن ينسب كل أحداث هذه الحقبة إلى مجرد مؤامرة تنفّذها الولايات المتحدة في حديقتها الخلفية إبان الحرب الباردة.

بعد نفي بيرون إلى إسبانيا في أواسط الخمسينات، حالت الانقلابات العسكرية المتتالية دون أن يُكمل الرؤساء الراديكاليون الذين يفوزون بالانتخابات ولاياتهم. كأن غياب التعبير السياسي لما تمثله البيرونية التي غيّرت الوجه الاجتماعي للأرجنتين ترك في المشهد السياسي فسحة ضبابية يملؤها تارة الراديكاليون باللعبة الانتخابية وتارة العسكريون باللعبة الانقلابية. في بداية السبعينات، بدا أن وعي هذه المعضلة قد اختمر أخيراً، وتفاوض الجنرال لانوسي مع مجمل الطبقة السياسية على شروط إعادة السلطة للمدنيين، ولأول مرة منذ عقدين على شروط عودة الجنرال بيرون من منفاه. فاز البيروني كامبورا في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٧٣ وعاد بيرون واستقال كامبورا وأُعيد انتخاب بيرون وزوجته الثانية ماريا إستيلا نائبة لرئاسة الجمهورية. وبموت بيرون عام ١٩٧٤بعد مرور سنة على وصوله، استلمت ماريا إستيلا الحكم...

هنا، من المفيد لاستيعاب ما سيلي، توصيف واقع أهم اللاعبين بكلمات معدودة في ما دار حول بيرون والبيرونية. الرجل الذي عاد من منفاه، عجوز وعاجز. والأهمّ أن الأرجنتين التي عاد إليها الجنرال المنفي بعد غياب طويل هي غير تلك التي تركها. والبيرونية إطار فضفاض يأوي وراء صورة الرمز الكاريزمي، تيارات متنافرة وراديكالية من اليسار واليمين. وشخصية ماريا إستيلا، في المسافة التي تفصلها عن إيفيتا، ترمز إلى كل ما تغيّر. تحت سطوة الوزير لوبيز دي فيغا، تريد أن تتدخّل في الاقتصاد فيما تنتظم حولها مجموعات متطرفة يمينية أمثال <تريبل أ> Triple A التي بدأت تمارس التصفيات السياسية. وهناك أيضاً تنظيمات الكفاح المسلح التي حملت السلاح ضد الحكومة العسكرية ولم تسلمه مع عودة الحكومة المدنية. تمر أشهر طويلة، عقيمة يبدو أن السياسة لم تعد تفرز خلالها حلولاً طبيعية. أخيراً، عندما تصل الطبقة السياسية إلى نوع من الاتفاق لاختصار ولاية الرئيسة ماريا إستيلا (التي كانت يوماً بعد يوم تظهر عدم كفاءتها) في بلد تحوّل إلى بقعة مشلولة، اعتبرت القيادة العسكرية التي كان صار الاستعانة بها منهجياً وبنيوياً أن الوقت قد فات.... تستلم السلطة ترويكا عسكرية تختار الجنرال فيديلا ليترأس البلد...

لا أسباب تخفيفية لهذه الحقبة المظلمة من تاريخ الأرجنتين.

ما سبق لا يهدف إلى تخفيف مسؤولية القيادة العسكرية بل إلى إعادة وضع صعودها إلى السلطة في إطاره الواقعي. بين العامين ١٩٧٣ و١٩٧٦ طغت تدريجاً اتجاهات متطرفة على مفاصل الجيش نجحت في تحويل الأوامر الواقعة جمع الأمر الواقع التي كانت تنتجها داخل القوات المسلحة وخارجها إلى خطوط عريضة لنظام جديد نوَت بناءه. في أحسن الأحوال، تصرف الذين استلوا على الدولة كالذين كانوا يدعون إلى محاربتهم، أي خارج القانون. ولكنهم في الواقع تصرفوا بشكل أسوأ وأبشع بأشواط وبمستويات... ومن المعروف اليوم أن هذا النظام الذي استولى بسرعة البرق على كل مرافق الدولة، طارداً منها كل العناصر الحيادية أو المدنية إلا ربما في المستوى الاقتصادي حيث عقد حلفاً جهنمياً مع القوى الأكثر ليبرالية، وهذا موضوع آخر... لم يفعل ذلك كمحصّلة أخطاء أو كنتيجة عناصر غير منضبطة كما يُقال في هذه الحالة. القرار اتخذ في المركز: رفضوا توظيف إمكاناتهم في أي حل بديل، وبعد استلامهم السلطة... أخذوا قرار <الحرب القذرة> الذي يساوي إبادة المعترضين بالاقتراع المباشر في اجتماعات القوات المسلحة! من باب التبرير ولا يبرر شيئاً بطبيعة الحال نقل عن القيادة العسكرية أنها كانت تنوي إعدام قيادات المجموعات المسلحة، وأنها تخلّت عن هذا المنحى لمصلحة <الحرب القذرة>، لأن نظام فرانكو كان يواجه وقتها حملة عالمية عارمة تبنّاها حتى الفاتيكان لعدم إعدام مجموعة من أعضاء الإيتا (لم ينصَع فرانكو في نهاية المطاف)، وكانت القيادة الأرجنتينية تخشى أن

2006042e-0001c-6

تلحق بها الحملة، ففضلت... <الحرب القذرة>!

كيف تكون <الحرب القذرة>؟ إنها تعتمد على العمل المنهجي في القيام بعمل <تطهيري> يعيد للمجتمع سلامته... وعلى القناعة بأن فاعلها هو المؤهل الوحيد للقيام بهذه المهمة... ويكفي... مع التروتسكية، كان من الممكن إلى حدّ ما عزل المجموعة عن المجتمع. ولكن مع البيرونية اليسارية المسلحة والنقابية، أخذ <المنهج> القائم على الخطف والتعذيب والذي أوصلهم إلى رمي المعتقلين بالآلاف أحياء من الطائرات في البحر! و<المنهج> بطبيعة الحال يتطلّب التعتيم على الصحافة مجريات أفعاله (إلا في الحالات التي يختارها)، ولذلك، لا بد من إسكاتها عند الحاجة، وهي دائمة وطارئة من وجهة نظر الحرب القذرة. في غياب فكر خاص ومفكر خاص، تنضوي الزمرة العسكرية الأرجنتينية تماماً تحت إيديولوجية الحرب الباردة (التي كانت الولايات المتحدة لقنتها لضباط القارة)، في مقاربة جعلت من مهمة <منع بروز كوبا جديدة> أولوية مطلقة يجوز تسخير كل الوسائل لخدمتها. يُضاف هنا، الاعتراف السريع المغطّى من كيسينجر لهذه الأنظمة الإنقلابية... لكن الحقيقة الموضوعية تفترض أن يضاف ايضاً أن الأمور تغيّرت مع وصول كارتر إلى الرئاسة. وهذا موضوع آخر يطول...

تمثل الأرجنتين اليوم الحالة الأكثر تقدماً لمقايضة هذا الوحش البشري.

السبب يعود على الأرجح إلى حالة الضعف التي وصل إليها النظام الأرجنتيني بعد تحطمه المذلّ في حرب جزر المالفيناس. للأسف، أكثر منه إلى بسالة المعترضين أو إلى منسوب العنف الذي لجأت إليه الدكتاتورية. بالرغم أنه صحيح أيضاً أن أول تجمّع من ١٢ أو ١٥ امرأة لم يكن سُمّى بعد <أمهات ساحة أيار> جرى بعد ١٣ شهراً من الانقلاب العسكري وفي أوج انفلات أرهاب الدولة. كما أنه جرى خطف قيادة الأمهات بعد عشرين يوماً من التظاهرة التي نظمتها خلال زيارة سيروس فانس وهو أول وزير خارجية في عهد كارتر إلى الأرجنتين. خطفها... ومن ثم تصفيتها... أمرّ على التاريخ بسرعة: يستلم إيسكيفيل جائزة نوبل للسلام في نهاية عام ١٩٨٠.... ويبدو أن الأسوأ قد مرّ عندما يستلم السلطة الجنرال فيولا منفتحاً وفي بداية عام ١٩٨١ : تخرج ماريا إستيلا بيرون من السجن ويتمّ نفيها. تطالب الأحزاب مجتمعة بالعودة إلى دولة القانون، ويبدو أن التفاوض بدأ لإعادة السلطة إلى المدنيين. لا مجال على الإطلاق: يُقال فيولا بعد أقل من تسعة أشهر من تنصيبه ويستلم غالتييري انقلاب داخل الانقلاب لإنقاذ <إنجازات> الدكتاتورية. في الذكرى السادسة للانقلاب العسكري، تتصدّر <الأمهات> تظاهرة جماهيرية حاشدة للمرة الأولى تنتهي باعتقال ألفي متظاهر. بعد ثلاثة أيام، أي في الثاني من نيسان عام ١٩٨٢، تبدأ مغامرة <حرب المالفيناس>.

في أول تموز، يستلم الجنرال بينيوني السلطة، هذه المرة ليسلمها للمدنيين. وبعد ١٥ شهراً، يستلم الرئيس الراديكالي المنتخب راوول ألفونسين. وفي الشهر الأول من حكمه، يتم توقيف الزمر الثلاث العسكرية التي تعاقبت على السلطة (وأيضاً زعماء مجموعات الكفاح المسلح)، ويتمّ إنشاء اللجنة الوطنية لتحديد مصير المخطوفي،ن ويتم إلغاء قانون العفو الذي كان العسكر قد أصدروه قبل خروجهم من السلطة. وبعد سنة، تقدم اللجنة تقريرها. ستة أشهر إضافية وتبدأ محاكمة الزمر العسكرية، وقبل نهاية عام ١٩٨٥، يصدر حكم السجن المؤبد على الجنرالين فيديلا وماسيرا.... مرة أخرى، إن وضع المؤسسة العسكرية الهشّ بعد مغامرتها العسكرية الفاشلة، أكثر من ميزان القوى الحقيقي، هو الذي سمح بأن يسجّل المجتمع نقاطاً متتالية وسريعة عليها. في نهاية عام ١٩٨٦، يقرّ ألفونسين قانون <نقطة انتهى> الذي يحدد تاريخاً أقصى لتقديم الشكاوى ضد المرتكبين. القانون يهدف إلى طمأنة الجنود في الثكنات... ولكنه لا يكفي، وتنفجر <الانتفاضة> تلو <الانتفاضة>. في أواسط ١٩٨٧، ألفونسين مجبر على إصدار قانون جديد اسمه <الطاعة المفروضة> يبرئ صغار العسكريين من عواقب تنفيذ أوامر تلقوها من قياداتهم أيام <الحرب القذرة>. في ولاية كارلوس منعم

الأولى، تصدر مراسيم العفو على دفعتين: في نهاية عام ١٩٨٩ وتشمل الجنود المحكومين والمنتفضين وزعماء مجموعات الكفاح المسلح، وفي نهاية عام ١٩٩٠، ويخص قيادات الترويكا العسكرية القابعة في السجن. في الواقع، يريد كارلوس منعم أن يقفل الملف إلا أن موضوع <المخطوفين الأحياء>، أي موضوع أولاد المفقودين، يُعاد يفتحه على مصراعيه، محوّلاً في الوقت نفسه <الأمهات< إلى <الجدّات>....

حان وقت الختام، وقبل أن أتمنى لك يا وداد وللجنة بمناسبة ١٣ نيسان نشاطاً مجدياً هذه السنة يساهم في رفع مستوى وعي شعبنا ومستوى اهتمام حكامنا وطبقتنا السياسية ولو ذرة واحدة ، دعيني أعلق بدون مقارنة لأنها في غير محلها إن بسبب طبيعة النزاع أو بسبب الوعي الذي رافقه على بعض المعطيات ربما تجدين فيها فائدة ما: أولاً: في الوقائع، حالياً يوجد ٢٠٧ معتقلين في السجون الأرجنتينية و٤٤ فاراً فيما توفى أيضاً ٨٣ محكوماً. أمام القضاء، هناك ١٠٠٤ دعوى تعني ١٤٠٦ متهمين. وهناك ضباط أرجنتينيون محكومون أمام القضاء الإسباني والفرنسي والإيطالي والألماني الخ... وقد تمّ الأسبوع الماضي رفع الحظر عن كل الأرشيف الرسمي (أو ما تبقى منه لأن الزمرة العسكرية أتلفت أجزاء كبيرة)، المتعلق بهذه الحقبة السوداء... أُلغيت كل قوانين العفو (ومنها قانونا <نقطة نهى> و<الطاعة المفروضة>). ثانياً، بالنسبة للمطالب الموازية إذا صح التعبير، صار يوم ٢٤ آذار وهو موعد الانقلاب العسكري، <يوم الذاكرة والعدالة والحقيقة>، يوم عطلة رسمية في الأرجنتين. عشية ٢٤ آذار. بالنسبة لموضوع التعويضات، تمّت معالجته على دفعتين: صدرت إبان منعم مراسيم التعويضات التي تخصّ المعتقلين خلال سنوات الديكتاتورية، وبعد ثلاث سنوات، تعويضات عائلات المخطوفين والمفقودين.. أتذكر الآن مفارقة قد تهمّك: في بداية ولايته الثانية، عام ١٩٩٨، قرر كارلوس منعم هدم مبنى <المدرسة العليا لميكانيك الجيش>، تجمّع عسكري شاسع تحوّل الى معتقل غير شرعي وإلى أفظع مراكز التعذيب، وإقامة نصب تذكاري مكانه يرمز إلى المصالحة الوطنية. رفضت <الأمهات> واستعنّ بالقضاء الذي بتّ لمصلحتهن عام ٢٠٠٣ مانعاً هدم المبنى الذي شرعت أبوابه الآن للجمهور، والذي سيتم تحويله إلى متحف...

(؟) كاتب لبناني مقيم في البرازيل